

السبت 09-02-2008

162- الشعور بالذنب في السياسة والحرز

هل يشعر الساسة، خاصة الحكام منهم، بالذنب؟
كيف؟ ثم ماذا؟

وكلما كان السياسي الحاكم جدا، له سلطات كبيرة جدا، يحكم دولة قادرة فاجرة جدا، لها أسلحة استباقية، وهابرات مافية (من المافيا)، وشركات عابرة، وتبريرات سافرة، احتدت على هذه التساؤلات عن شعور حكامها بالذنب. كيف؟ ثم ماذا؟
أكتب منذ أسابيع عن الشعور بالذنب، حين جلست اليوم لأكتب التعتعة لم أستطع أن أخرج من هذا الموضوع الملح، فحضرتي هذه الأسئلة الساذجة.

الشعور بالذنب غير الشعور بالندم، والتكفير عن الذنب غير مجرد الاستغفار، والتوبة عن الذنب ليست إعلانا موقوفا عن التنفيذ، هو شعور جوهرى مغروس في الوجود البشرى منذ بدء الخليقة، منذ امتحن الإنسان بجمل أمانة الوعى، ثم الوعى بالوعى، وهو يرجع تاريخا إلى ندم المعرفة، منذ الأكل من الشجرة المحرمة، فالخروج من الجنة، ثم قابيل وهابيل والغراب، حتى أوديب سوفكل ثم فرويد .. إلخ طيب، إيش أدخل هذا في السياسة؟ (بيني وبينكم، وفي الاقتصاد الذى تتمحور حوله السياسة؟)

تعلمت أن أمارس مهنتي من خلال احترامى لمرضى وتعلمى منهم، ولكى أتمكن من هذا وذاك كان على أن أتقمصهم، طبقة بعد طبقة، وتركيبا من داخل تركيب، طبعا ملئت بالرعب في البداية، لكن طالت ممارستي أكثر من نصف قرن حتى عرفت الطريق إلى قراءة النص البشرى، وساعدتني على ذلك ممارساتي في قراءة النص الأدبي ناقدا، أصبح من السهل على أن أتقمص مجنونا لا ينطق ببنت شفة، أقرأ عينيه وجسده وحركته وجهوده، أضح كثيرا أن أترجم لغته، وأنجح أحيانا أن أتواصل معه حتى أفهم ثورته، وفشله، وانسحابه، وإبداعه المهض، وآلامه (بالرغم من غلبة ظاهر تبدله)، امتدت قدرتي على التقمص هذه من مرضى إلى الأطفال، فسهلّت على صداقتهم، دون ذويهم الذين كنت أعجز غالبا عن تقمصهم اكتشفت أيضا أنه من السهل على أن أتقمص فلاحا أميا مثابرا لثيما ظريفا عنيدا

يقظا أكثر من قدرتي على تقمص رئيس المجلس الخلى أو رئيس مجلس إدارة شركة دواء، فما بالك برئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

ما الحكاية؟

احتدت المسألة حين حاولت أن أتقمص أولئك الذين عندهم من الأموال ما لو تفرغوا لعدّه حتى لو كان من فئة المائة دولار لقصوا نخبهم عدة مرات قبل أن ينتهوا، ومرت أمامي صور مرعبة لمجاعة عامة قائمة أو قادمة، وكلما سألت أحداً ممن حولي عن هدف ولذة هؤلاء بما يجمعون، على حساب أولئك الجائعين، وليس عندهم ثلاث معدات، ولا وقت "لعمل الخب" أكثر من 24 ساعة في اليوم، فيمط المسئول شفتيه مستغرباً ويقول لي: المفروض أن نسألك أنت، فأقسم له أنني عاجز أن أضع نفسي مكانهم (مع أنني غني، وطبيب نفسي)، فيجيب: إن المال هو الطريق إلى السلطة، فأنزعج أكثر، صانحاً إن السلطة سوف تجلب له مزيداً من المال وتستمر الدائرة الجهنمية، وأواصل: وهل السلطة ستجعل له معدة زيادة، أو تمط له اليوم إلى أربعين ساعة ليمارس الخب أكثر؟!!

التاريخ يلعب هنا لعبة ملتبسة، فهو قد يركز على التائبم (الإشعار بالذنب، مثل مزاعم الهولوكست) أكثر من تركيزه على ارتكاب الذنب، وأحياناً يتعطف التاريخ فينبه حكماً لاحقين إلى ذنوب دولهم في حرب أو تطهير عرقي أو إبادة جماعية سابقة، تجاه شعوب أكملها أو أبرياء بلا حصر، فتنبيه اليابان - مثلاً- إلى ما فعلت في الصين وتعتذر، ولا ينتبه الأمريكيون إلى ما فعلوا في الهندو الخمر، ويتمادون في قتل ذويهم في كارل هاربر إلى "اليدون" (من ليس أميركياً فهو شرير "بدون" جنسية") من هروشيما إلى فيتنام إلى أفغانستان إلى ما لا ندرى بعد إيران .

حين أوصل المحاولة، تطل على ابتسامتهم البليدة، وتصريحاتهم المفرغة، وتعاطفهم الكاذب.

نحجّ ذات مرة أن أتقمص أحدهم فإذا بي أشعر بالذنب كما ينبغي، فوجدت نفسي معلقاً في حبل مربوط في أعلى حديد نافذة مسجد مهجور، أفزع من كثرة ما كررت لمرضى أن انتحاره سوف يتكرر في نار جهنم إلى الأبد، ليريه ربنا أنه لم ينجح أن ينهي حياة ليس هو صاحبها .

أتلفت والخبيل حول رقبتى، وجثتي تهتز تحتي، وإذا بي أرى من تقمصتهم ينظرون إلى في شماتة بنفس الابتسامات، هي هي، بلا أدنى شعور بالذنب.

أنا المسئول لأنني تقمصتهم، أخطأت إذ نسيت أن أتقمص مشاعرهم فانتحرت نيابة عنهم .

يلوئق يقين أن الله أعدل من أن يتركني هكذا،
ويتركهم هكذا!!!